الشرق في التمثلات الغربية الحضارية
Orient in Western civilizational representations

مولاي الصديق سلاح الحق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض، مراكش
m.silahelhak@ucam.ac.ma

Abstract

the external field (the Orient), which Western writers imagine, has been largely predetermined by their Western cultural reality, weighed down since antiquity by the representations and the appreciations accumulated about the Orient, it has become more appropriate for researchers to avoid neglecting this aspect, which we consider the cornerstone of any study that seeks to explore the nature of Orientalism.

Therefore, taking into account the literary aspect and its limitations presented by the question of the treatment of the Orient by the West as an external world, with the presentation of historical and political variables that have had an important impact on literary representations and perceptions, constitute basic data in this direction because they explain many Orientalist publications, which over time have highlighted superiority over the other and contempt for him and his civilization.

Key words: History of Western representations - Concept of representations - Representations and cultural contexts - between the West and the East

Résumé

Puisque le champ extérieur (l'Orient) qu'imaginent les écrivains occidentaux est un champ qui leur a été largement prédéterminé par leur réalité culturelle occidentale, alourdie depuis l'antiquité par les représentations et les appréciations accumulées sur l'Orient, il est devenu plus approprié pour les chercheurs de ne pas négliger cet aspect, que nous considérons comme la pierre angulaire de toute étude qui cherche à explorer la nature de l'orientalisme.

Prenant ainsi en compte l'aspect littéraire et ses limites posées par la question du traitement de l'Orient par l'Occident comme un monde extérieur, avec la présentation des variables historiques et politiques qui ont eu un impact important sur les représentations et les perceptions littéraires, constituent une donnée de base dans ce sens car elles expliquent de nombreuses publications orientalistes qui ont consacrées au fil du temps la supériorité sur l'autre et le mépris pour lui et sa civilisation.

Mots clés : Histoire des représentations occidentales - Concept des représentations - Représentations et contextes culturels - entre l'Occident et l'Orient

ملخص

مادام الحقل الخارجي (الشرق) الذي يتخيله الكتاب الغربيون هو الحقل الذي حدده لهم سلفا إلى حد كبير واقعهم الثقافي الغربي، وذلك منذ العصور القديمة عن طريق التمثيلات والتقييمات المتراكمة حول الشرق، فقد أصبح من الواجب على الباحثين عدم إهمال هذا الجانب، الذي نعتبره حجر الزاوية في أي دراسة تسعى إلى استكشاف طبيعة الاستشراق.

لذا فإن الأخذ في الاعتبار الجانب الأدبي وحدوده التي تطرحها مسألة معاملة الشرق من قبل الغرب كعالم خارجي، وعرض المتغيرات التاريخية والسياسية التي كان لها تأثير كبير في تشكل التمثيلات والتصورات الأدبية تشكلان مرجعا أساسيا في شرح العديد من المنشورات الاستشراقية التي كرست بمرور الوقت، التفوق على الآخر وازدراء حضارته.

الكلمات المفتاحية: تاريخ التمثلات الغربية- مفهوم التمثلات – التمثلات والسياقات الثقافية- بين الغرب والشرق.

مقدمة

شهد العالم في الآونة الأخيرة تحولا تقنيا سريعا في مختلف الأصعدة، لكن رغم هذا التحول لا زلنا نعيش ويلات الحروب والتلوث والمجاعات وانعكاساتها السلبية على مستوى الهواء والتربة والمياه. ورغم تصورنا بأن هذه الكوارث المدمرة لا تقع إلا في أماكن بعيدة عنا، إلا أننا كأعضاء فاعلين في المجال الثقافي معنيون بذلك بشكل مباشر، ذلك أن تبعاتها وما تتركه من آثار سلبية تؤثر بشكل أو بآخر على التوازن العالمي، فتهددنا جميعا سواء كان ذلك في الحاضر أو في المستقبل. وانطلاقا من أننا اليوم نعيش في عالم أصبح يقال عنه بأنه قرية صغيرة، فقد أصبح من الأهمية بمكان التعامل مع هذه الأحداث بصورة جماعية عوض القنوات الضيقة الموجودة الآن مثل "السوق الأوروبية المشتركة أو الشراكة الأورو متوسطية ..." وذلك لتوسيع دائرة الحوار وتبادل المعلومات وتسريع العمل الجماعي، من أجل تحقيق نتائج مرضية. لقد أصبح هذا الأمر يطرح نفسه بشكل لازم وملح، لكن السؤال المطروح ما هو السبيل لتحقيق ذلك؟

من الملاحظ أن العلاقات العالمية الآنية سواء الثقافية والسياسية والاقتصادية، علاقات تم تأسيسها أثناء فترة الاستعمار، فعلاقات المغرب أو تونس مع فرنسا مثلا تفوق

بكثير علاقاتهما مع دول أخرى أوروبية كألمانيا وانجلترا، هذه الأخيرة التي تربطها بدورها علاقات وطيدة مع الهند وباكستان، ومن الملاحظ أيضا أن السمة الغالبة على هذه الأشكال من القنوات الاقتصادية العالمية الضيقة هي عدم التكافؤ الاقتصادي بين هذه الدول، مما يؤدي إلى الشعور بالاستغلال وتكوين مركب النقص لدى شعوب المستعمرات.[1]إن هذا النوع من القنوات الضيقة لا يساعد بتاتا على قيام تحالف فعال لمواجهة المشاكل الراهنة التي تواجه شعوب العالم، كما أنه يكرس تصورات وتقييمات لازالت تشكل عاملا يعرقل صيانة كرامة الإنسان وحقوقه سواء في الماضي أو في الحاضر، ذلك لأن مجموعة من الأحاسيس والمشاعر الإنسانية يتم انتهاكها وتجريحها بطريقة استعلائية تفرق بين الشعوب بدل الجمع بينها.

إن الإشكالية الحقيقية التي تعيق قيام تحالف عالمي سليم وفعال لمواجهة هذه الأخطار هو العائق الذي تشكله هذه التقييمات المتبادلة بين الشعوب، والتي لا تساعد بأي شكل من الأشكال على قيام حوار إنساني عالمي. إن التحديات المنتظرة والعلاقات الدولية في نظرنا لا يجب أن ترتكز على التبادل التجاري والاقتصادي فقط بقدر ما يجب الإجابة على السؤال المحوري المهم: هل هذه العلاقات الدولية متوازنة بالشكل الذي يستطيع أن يجعل شعوب العالم تحترم بعضها البعض أم أنها تكرس احتقار بعضها البعض؟ بمعنى آخر، هل غنى الغرب يعني أفضليته؟ وهل يعود سبب فقر الشرق لشعوب هذه المنطقة؟

رغم أن الكثير من سكان العالم المتحضر "العالم الأول" يعتقدون جازمين بأحقية أفضليتهم، إلا أن هذا القول حسب رأينا يبقى غير إنساني وهو بمثابة هروب من المسؤولية. إن طرح هذه الأسئلة من شأنه أن يحيلنا على مجموعة من القيم التي كانت ولا زالت تطبع المعاملات سواء داخل المجتمع الواحد أو المعاملات الدولية. بالطبع نحن واعون بصعوبة التصريح ثم الإجابة عن هذه الأسئلة ذات الطابع التاريخي، لكن المعطى الأساسي الذي بين أيدينا والذي يجب الانطلاق منه هو أن شعوب العالم المسمى «بالعالم الثالث" غير راضية تماما اتجاه التقييمات والتصورات الازدرائية الموجهة لها.

[1] بالنسبة للعمل الحالي اعتمدت مفهوم الإمبريالية الذي قدمه إدوارد سعيد في الثقافة والإمبريالية، 1978، ص. 101

إن هذا الإحساس في نظرنا كاف لعدم وجود ثقة متبادلة بين الشعوب، بل لاستحالة إيجاد جو ملائم لتحقيق مستقبل أفضل ولقيام عمل جماعي بناء مفيد للإنسانية، لذا فإنه انطلاقا من دافع المساهمة في تغيير هذا الواقع، نحاول أن نؤسس منهجا يمكن من خلاله أولا رصد العديد من التصورات والتمثلات والآراء الغربية حول الشرق، ثانيا التعامل معها بطريقة منهجية تاريخية عن طريق الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- كيف نشأت هذه التصورات الغربية حول الشرق، وبماذا تتميز؟
- كيف استطاعت أن تعيش إلى اليوم؟
- هل هي متجذرة في الفكر الغربي؟
- هل لها آثار في اتخاذ القرارات السياسية والاقتصادية؟

1. الإشكاليات الأدبية للخطاب الاستشراقي

1.1. التمثلات والتقييمات منظومة محكمة

للإجابة عن الأسئلة المطروحة وأخرى سوف يفرضها الموضوع نفسه، يجب ربط تصورات وتقييمات الغرب حول الشرق مند العصور الماضية، بتصوراته وتمثلاته عن الشرق في العصر الحاضر، وذلك بطريقة منهجية تاريخية تروم ليس فقط دراسة هذه التقييمات في الوقت الذي ظهرت فيه وحده، بل استخراجها من الماضي، والوقوف عندها لأجل ترتيب حلقاتها الواقعة كقطع ألغاز داخل سلسلة أدبيات الغرب المحكمة الوصال، من أجل ربطها أخيرا بالنتائج التي ترتبت عنها في الحاضر. إن التعامل مع هذا الطرح التاريخي الذي نقترحه كمحاولة للإجابة عن الأسئلة المطروحة، يستوجب الإشارة إلى أن أهمية دراسة هذه التقييمات الصلبة والمتقاسمة لا تكمن في التركيز على دراستها في الوقت الحاضر، بل في دراستها تاريخيا منذ نشأتها، وذلك بعد العثور عليها ثم استخراجها وفحصها وترتيبها ومعرفة النتائج المترتبة عنها.

يبدو أن بعض الجوانب قد تم تغطيتها بشكل غير كاف في الخطاب الاستشراقي لذا سنحاول من خلال البحث إثارة جوانب مهمة يجب مراعاتها أثناء تناول وتقييم الكتاب الغربيين للشرق عامة وللثقافة الإسلامية خاصة، ذلك أن الدراسة النقدية للنصوص

الاستشراقية تفرض بشكل ملح التعامل مع عدة نظريات تدور حول المؤلف والنص والقارئ وبالتالي نظرية الإدراك الاجتماعي المعرفي لرصد الإيديولوجيات التي تم بموجبها استقبال الآخر ثم نظرية التلقي أي كيف تم إعادة إنتاج الآخر وتكييفه واستيعابه بعد تقييمه و تحليل عناصره لإدماجه في علاقات أوسع.

2.1. تناول الغرب للآخر كموضوع أدبي

إن الطرح الذي قدمناه في المقدمة والذي يحمل في طياته الادعاء بأن التصورات المتراكمة تاريخيا عن الشرق ترسم كيفية التعامل معه وأنها تشكل حاجزا معرفيا أمام رؤى جديدة تروم فحصا دقيقا وفهما موضوعيا وواقعيا للأشياء، يستدعي من الباحثين المختصين الكشف عن هذه التقييمات الحاضرة بقوة في أدبيات الغرب والتي ظهرت إلى الوجود عن طريق رحلات قام بها مجموعة من المستشرقين إلى بلدان مختلفة من المشرق العربي، أمثال هاينريش فرايهر فون مالتزان (Heinrich Freiherr von Maltzan) " رحلة حجّي إلى مكة"، رحلة إلى المناطق الساحلية والداخلية لبلاد الحجاز(1873)، وكتاب الأمير بوكلير موسكاو (Fürst von Pükler-Muskau) رحلة إلى الشرق (1838)، وكتاب جيرهارد رولفس (Gerhard Rohlfs) إقامتي الأولى بالمغرب (1865)، هؤلاء تعاملوا في رحلاتهم المختلفة مع المشرقي، فقاموا بمعالجة ملاحظاتهم في نصوص نشروها في كتبهم.[1]

تتحرك التمثلات والتصورات عادة داخل منظومة معينة لها حدود معينة، بالتالي داخل حدود رؤية الإنسان وتحليله للأشياء، خصوصا تلك الغريبة عنه، إذ أن التعامل معها لا يتم إلا في حدود استطاعته أي في حدود الأدوات المتاحة له، وهذا لن يساعدنا فقط في تحديد العلاقة الكائنة بين الكاتب والواقع من جهة و النص والقارئ من جهة أخرى، بل في نشأة الثقافة نفسها عموما، إذ أن تاريخها في آخر المطاف هو تاريخ نشأة التصورات وتداولها ودلالاتها عبر مختلف العصور، بالتالي فإن دراستنا لمجموعة من

[1] غيرهارد رولفس، إقامتي الأولى في المغرب: السفر جنوب الأطلس، (رحلة الرحالة الألماني 1873)، ترجمة إدريس الجاي، 2018.
- هاينريش فرايهر فون مالتسان، رحلة حجيّ إلى مكة، ترجمة ريهام نبيل سالم، مراجعة عبد الله أبو هشة، دار الحكمة، لندن، 2018.
- هيرمان فون بوكلر موسكاو مصر والسودان تحت حكم محمد علي باشا، زيورخ، 1994.

التصورات والتقييمات الغربية عبر الأزمنة المختلفة، هو بمثابة دراسة وتحليل للثقافة الغربية[1]. وانطلاقا من أن أي تقييم للأشياء لا يخلو من تأثير شخصية الكاتب، وتأثير الظروف المحيطة به، فإن هذه التصورات الغربية لا يمكن أن تكون بتاتا نسخة طبق الأصل للمجال المشرقي (العالم الغريب)، ذلك أنه في اللحظة التي يتم فيها معايشة الفضاء الخارجي (المشرق)، فإنه يتم صياغته بشكل أوتوماتيكي بالرجوع إلى ما هو محصل ثقافيا لدى الغرب، فتتم بالتالي عملية حكي نظام معين عن نفسه مباشرة أثناء محاولته فهم النظام الآخر.[2]

انطلاقا من ذلك فإنه لما كان المجال الخارجي (المشرق) الذي يتصوره الكتاب الغربيون هو مجال حدده لهم سلفا إلى حد بعيد واقعهم الثقافي الغربي المثقل منذ القدم بالتمثلات والتقييمات المتراكمة حول المشرق، أصبح من الأجدر على الباحثين عدم إغفال هذا الجانب الذي نعتبره الحجر الأساسي لأي دراسة تتوخى استكشاف ماهية الاستشراق، لذا فإن مراعاة الجانب الأدبي وحدوده الذي يطرحه موضوع تناول الغرب للشرق كعالم خارجي مع عرض المتغيرات التاريخية والسياسية التي كان لها وقع هام على التمثلات والتصورات الأدبية، يشكلان معطى أساسي في هذا الاتجاه كما يفسران الكثير من الإصدارات الاستشراقية التي كرست عبر الزمن وإلى اليوم مفهوم الاستعلاء على الآخر والازدراء منه ومن حضارته. انطلاقا من هذا كله، فإن نصوص المستشرقين من حيث تمثلاتها وتصوراتها للآخر، لا يمكن فصلها عن البيئة التي تمت فيها نشأتها ولا من الواقع الثقافي المحدد لها وللكاتب سلفا، ولا يمكن إلا أن تكون منتجا لمجموعة "أنظمة إشارات" أتاحتها البيئة الثقافية الأوربية تاريخيا لمعالجة وتصنيف العالم الخارجي. لذا فإن المسافر "يقرأ" المناظر الطبيعية الأجنبية والعادات المجهولة باستخدام روابطه الثقافية الخاصة فيوظفها بطريقة جديدة حسب ثقافته، ذلك أن معنى الثقافة هو المعنى الذي نمنحه لها[3]. وانطلاقا من أن العلاقات الثقافية التي تنشأ عند القارئ خاصة أو المتلقي عامة تبقى خاضعة بكل تصوراتها الصلبة للقيود الثقافية الذي يفرضها واقع المتلقي، فما أهمية كل

[1] مراد كلمنس، التناص والمرجع الذاتي، 1995، ص. 3
[2] المرجع نفسه، ص. 5
[3] المرجع نفسه، ص. 4

هذه التمثلات والتصورات وما هي المشاكل التيتطرحها أمام تحسين التفاهم المتبادل بين الغرب والشرق؟

هنا يجب التأكيد على أن الخطوة الأولى التي بجب اتباعها هي إيجاد وترتيب الأحكام المتنوعة حول الشرق ثم فحص قيمتها الإيجابية أو السلبية سواء الآنية أو الماضية، ثم تجميع آثارها المختلفة سواء من منظور الغرب أو الشرق بغية الوقوف على الكيفية التي يتم بها تقديم هذه الثقافة والكشف عن جذور التشويه الذي شهدته في الماضي وما زالت تشهده إلى الآن، كل هذا من أجل فهم حقيقي للثقافة الشرقية، ومعرفة النظرة والتقييم التاريخي اللاحق الناتج عن هذه التشوهات التي طرأت على هذه الأخيرة.

عند اتباعنا لهذه المنهجية فإن تلك التغييرات والتشوهات الثقافية عبر التاريخ ستصبح أولا مكشوفة وواضحة للعيان ثم سيسهل معها توضيح كيف أصبحت هذه الأحكام القيمية والتصورات الماضوية عن الشرق من المسلمات لدى الغرب، وذلك بشكل لا يمكن بحال من الأحوال الشك فيه، ثم لماذا تعتبرها دول الشرق مؤثرة على التطورات الثقافية والسياسية والاقتصادية العالمية إلى اليوم. وبما أن البحث لا يهدف الاكتفاء على الوقوف من خلال هذه المسلمات عما يمكن أن يعزز الشعور بالتفوق الثقافي على المستوى الأدبي لدى الغرب، ولكن أيضا البحث عن تأثيراته المتشابكة على المسارات الاقتصادية والسياسية المشتركة. انطلا من هذا نجد أنفسنا مضطرين للإجابة عن سؤال محوري: ما علاقة السياسة بالثقافة بالتالي أين تتجلى تأثيرات التصورات الثقافية الماضوية على الأحداث السياسية والاقتصادية إلى اليوم.

2. الفضاء الثقافي السياسي بين التأويل والتفسير

حين تناولنا لمصطلحات كالحرب الصليبية أو الإمبريالية فإننا نفترض جدلا بأن هناك علاقة عميقة بين الفضاء الثقافي والسياسي، أي أن الحقول الثقافية سواء الأدب والفن والفلسفة وانخراطها بطريقة غير مباشرة في مجال السياسة، يعد عاملا مساعدا في تكوين نظرة أو وعي معين لدى الشعوب.

في هذا الصدد يعرف إدوارد سعيد مصطلح الإمبريالية بقالب جديد معتبرا العلاقة الجدلية بين الواقع الثقافي والسياسي التي رغم حتمية تفاعلهما معا، تبقى في نظره

تسير في الغرب على مستوى الدراسة بشكل ينفصل فيه الواحد عن الآخر، ذلك أن التأثيرات المختلقة الحاصلة بين الثقافة والسياسة تقتضي في نظره عدم الفصل بينهما عند تناول العلاقات التاريخية بين الشرق والغرب، كما تقتضي ربط هذه الأخيرة بالامتيازات الاقتصادية التي استفاد منها الغرب ولا يزال نتيجة النظرة الثقافية الدونية للشرق، طبعا العديد من النظريات الغربية الحديثة تعتبر التمثل والتصور الثقافي مسألة مركزية، لكنها نادراً ما تضعه في سياقه السياسي، فمن جهة يلاحظ المتتبع أن الغرب لديه مجالا ثقافيا معزولا حراً ومفتوحاً على المضاربات والبحوث النظرية، ومن جهة أخرى مجالا سياسيا مثقلا بتضارب المصالح (...). ورغم أن هذه المجالات ينظر لها على أنها منفصلة فيما بينها، لكنها في الواقع مرتبطة ارتباطا كبيرا، ونتيجة هذا الفصل بين المجالين عبر التاريخ توطد التزوير بشكل جذري بحيث تملصت الثقافة من كل أشكال القوة بالتالي تم إفراغ كل هذه التصورات والتمثلات الثقافية الدونية من كل ما هو سياسي. هذه الأخيرة التي يتم تفكيكها مثل العديد من قواعد التبادل الثقافي والسياسي والاقتصادي بين الشرق والغرب بمعزل عن بعضها البعض وبنائها بطريقة تفصل الحاضر عن الماضي ليبدو ذلك كاملا وغير قابل للانتهاك.[1]

يبدو تصريح إدوارد سعيد تصريحا عاما يفتقر إلى الدقة وهو ما سنعمل على توضيحه، ذلك أنه يعارض حقيقة أن هناك اليوم وخاصة في أوروبا سعي لتفسير جديد لكل ما هو ثقافي سواء في مجال الأدب والفن والفلسفة والعلم، ذلك لأنه من غير الممكن تصور الثقافة دون إدماجها في إطارها وسياقاتها المختلفة، ودون الأخذ بعين الاعتبار الواقع السياسي الذي أنتجت فيه. وفيما يخص العلاقة السياسية والثقافية بين هذين القطبين على المستوى الأوروبي، فإن المتتبع للأحداث يلاحظ أن هناك إشكاليتين، الأولى تتجلى على مستوى فهم واستيعاب الإنسان الغربي للعلاقات الثقافية والاقتصادية والسياسية داخل بلاده، أما الثانية فتتجلى في أن هناك تقصير كبير لدى الغرب سواء كمؤسسات أو كأفراد، في فهم الشرق بكل مكوناته وعلاقاته الثقافية والاقتصادية والسياسية.

[1] إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، 1978، ص. 99

إننا حين نرفع شعار نقد الفن والثقافة الأوروبية الغربية ككل، لا يعني الإدانة العامة. لها على الإطلاق[1]. لأن الإشكالية الأساسية لا تكمن بالضرورة في كيفية تعامل الغرب النقدي مع الثقافة والدوافع السياسية التي تحركها، ذلك أن الغرب وعلى مر التاريخ عرف عدة حركات مقاومة ضد عدة أشكال من الإيديولوجيات نذكر منها الأفكار الشيوعية مثلا[2]، كما أن الجدل الثقافي الأوروبي الواسع في كل وسائل التواصل الإعلامي هو بمثابة دفاع ضد أي تدخل إيديولوجي سياسي للدولة. إن المتتبع للأحداث يلاحظ أنه على العكس من ذلك فإن التعامل النقدي في المعسكر الغربي مع أشكال الثقافة هو ركيزة أساسية من ركائز الديمقراطية، وبما أن هذا التعامل النقدي مع الثقافة هو شيء معايش لدى الأوروبيين، فإن مربط الفرس والمشكل الحقيقي في نظرنا يكمن في حرية الثقافة الواسعة لدى الغرب، ذلك أن الثقافة الغربية متحررة بشكل كبير جدا وغير مراقب مما يدفعنا إلى القول بأن هناك العديد من الكتابات والمأثورات والأفكار التي تحمل في طياتها العديد من المغالطات والتي لم يتم التحقيق والتدقيق في تأثيراتها ولا مراجعة مدى صحتها تحت دواعي حرية الرأي أو حرية الثقافة. إن هذا النهج والتطور الحر للثقافة لا يحميها من الاستغلال، مما جعل هذه الآراء والأفكار المغلوطة حول الشرق مع مرور الأيام -نظرا لنشأتها في فترة وظروف سياسية معينة-من المسلمات لدى الغرب، ولتندمج مع مرور الزمن في الثقافة الأوروبية فتصبح لبنة أساسية في عمليات تكوين الرأي العام بالشكل الذي لا يمكن بأي حال من الأحوال التراجع عنه، بعدما كانت متناثرة هنا وهناك. كل هذا راجع إلى غياب المراقبة الموضوعية للثقافة مما أدى إلى تصلب هذه التقييمات والأفكار حول الشرق لقرون عدة داخل جميع فروع وشعب الثقافة الأوروبية، فأصبح الوصول إلى الكثير من المغالطات والافتراءات المقصودة والغير مقصودة غير ممكن إلا عن طريق دراسة نقدية علمية دقيقة يقوم بها أصحاب الاختصاص، هذه الأخيرة التي يجب أن تعمل على تحقيق التعايش السلمي من خلال فحص وتنقية التراث الثقافي الأوروبي بغية فك عملية الدمج التاريخي المستمر للامتيازات والمصالح الاقتصادية والسياسية من جهة والثقافة الوطنية من جهة أخرى. ولقد عبر عن ذلك إدوارد سعيد في قوله: «ما أريد اكتشافه هو كيف

[1] إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، م. م، ص. 48

[2] بروكهاوس، الناس الملونين: الواقعية الاشتراكية، المجلد 10، ص. 654

وصلت عمليات الإمبريالية إلى مستوى أبعد من القوانين الاقتصادية والقرارات السياسية، من خلال استعدادها للدمج المستمر، عبر سلطة التقييمات الثقافية المعروفة، في التعليم والأدب والموسيقى والفنون، بشكل كبير في الثقافة الوطنية التي نميل إلى تقديس صورة آثارها الفكرية الثابتة، بإبعادها وعزلها عن جميع الملابسات والأحداث العالمية».[1]

أيضا تطفو على السطح إشكالية أخرى تتعلق بهذه التقييمات حول الشرق تتمثل في تزايد المناقشات في وسائل الإعلام الأوروبية حول كيفية تجاوز كراهية الأجانب، وتزايد رغبة أسفار الأوروبيين نحو بلدان المشرق، ذلك أن الأوروبي الذي لم يسافر إلى الشرق مباشرة فإنه يسافر إليه خياليا عن طريق القراءة، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن هناك اهتمام كبير من طرف العديد من الأوروبيين في التعرف على الآخر وعلى حضارته دون تحيز وبدون أحكام مسبقة. طبعا يحظى هذا الموقف بالاحترام الكبير على المستوى الاجتماعي ذلك أن هذا السلوك لا يقتصر على مجرد إشباع رغبات رومانسية، بل يعد سلوكا اجتماعا إيجابيا ومحاولة إنسانية راقية لملاقاة الآخر من ثقافات غير غربية.[2]

كل المواقف الأوروبية سواء المناقشات التي تدور حول كراهية الأجانب أو الأسفار في مظهرها المتعاطف والمتسامح اتجاه الشرق وتعاملها الإيجابي معه تعطي في نظرنا للثقافة الغربية ولو مع نفسها طابع الإحساس بأنها متسامحة وإنسانية، لكن على الرغم من محاولات التقرب هذه والجهود الأوروبيين الرامية إلى تحقيق التعايش الإنساني المثمر بين الثقافات، إلا أنها تبقى محاولات متناثرة وسطحية لا تلغي كون هذه الثقافة حمالة للعديد من الأكاذيب والمغالطات والأفكار الاستعلائية العنصرية التي تنتقص من الآخر وتزدريه، ثقافة مقيدة وملوّثة بصور وآراء الزمن الماضي، في هذا الصدد نورد مظهرا من مظاهر التهميش، وحتى الشطب الذي مارسه الاستشراق العنصري الغربي ضد مساهمة العلماء والفلاسفة العرب في الحضارة الإنسانية، كمثال على ذلك ما جاء مع إرنست رينان، وهو أحد رواد المركزية الأثنية الأوروبية، ومهندس أسطورة "تفوّق الجنس الآري ودونية الجنس السامي" في القرن التاسع عشر، وقد أنكر وجود فلسفة عربية بقوله المشهور: «من

[1] إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، م. م، ص. 48
[2] المرجع نفسه، ص. 98

العسف أن نطلق اسم فلسفة عربية على فلسفة لا تعدو أن تكون استدانة من اليونان»[1]...

لقد ترسّخت هذه المنظومة بفعل قرون طويلة من التمييز والعنف، لدى أصبحنا بحاجة إلى نهج تفكيكي تحويلي يعالج المجالات المترابطة التي تؤدي إلى هذه المغالطات وتولد تجاوزات متكررة يمكن تجنبها تماما. من هنا ندعو الجميع إلى التوقّف عن الإنكار والمبادرة إلى تفكيكها، ومجابهة موروثات الماضي وجبر الضرر. لا يمكننا أن ننكر أن موروثات التراث الثقافي الأوروبي عبر مختلف الأزمنة تؤثر بشكل سلبي على تعامل الإنسان الأوروبي مع الآخر، كما لا يمكننا أن ننكر أنه ورغم المحاولات السطحية يضل الوقوف عليها من الصعب بمكان، مما يؤثر بشكل سلبي على كل المحاولات الحالية التي تخدم التقارب والاحترام المتبادل، وما دام المثقف الأوروبي لم يتعاط بشكل جدي مع هذه التقييمات والأفكار الموروثة، فإنه من الصعب على المواطن الأوربي العادي القيام بمراجعة نقدية للأفكار والتصورات التي يحملها شخصيا عن الشرق.

إن الباحث الذي يعتزم خوض هذا الغمار الثقافي بين هذين القطبين لينصب نفسه بالضرورة حكما من أجل إظهار نقائص وعيوب وهفوات الثقافة الغربية التي وقعت فيها مع مرور الزمن باتجاه الشرق، يجب أن يضع صوب عينيه أنه بتحليله هذا يجازف بالإساءة للآخر بشكل مباشر أو غير مباشر، ذلك أنه من الممكن أن يجرح مشاعر عديدين، وربما يقع في نفس الفخ الذي وقعت فيه الثقافة الغربية نفسها، لذا يجب الابتعاد عن كل حساسية من شأنها أن تفضي إلى نكران وبخس الجهود والمحاولات العديدة الرامية إلى تقريب وجهات النظر بين القطبين، وأن لا يبدو الأمر وكأن الغرب متهم يجب محاسبته، ذلك أن هذا الأخير طبعا قام بمحاولات تدعو لردع الصدع بين الثقافتين وفهم الآخر واحترامه، إلا أنها لم ترق إلى المستوى المطلوب.

لا نريد لهذا البحث أن يكون امتدادا لما سماه إدوارد سعيد بالخطاب الشمولي المفعم باللوم والذي ميز معظم كتابات حقبة ما بعد الاستعمار، والتي اعتبرت الثقافة الغربية ثقافة تفوق واستعلاء تقوم على احتقار الآخر والازدراء منه، بالتالي التنقيص من

[1] إرنست رينان، التاريخ العام والمقارن للغات الساميّة، 1863، ص. 10

كل ما هو ليس غربي[1]. واجتنابا لهذا الانطباع السلبي فإن المنهجية التي يجب اتباعها هي التمييز بين الثقافة الأوروبية ككل، وبين بعض الأنماط الفكرية الحمالة لرواسب عنصرية كجزء من الكل، وبين الأهداف الجماعية لبعض الأنظمة الاقتصادية والسياسية، والمحاولات الفردية الإيجابية لبعض الأشخاص، كما يجب التريث والاحتراز من وجهات النظر التي تحاول إضفاء طابع الإثراء على كل محاولات التقارب كيفما كان نوعها وأهدافها، لأن ذلك لن يساعد بأي حال من الأحوال على تصحيح مسار الخطاب الثقافي بين الجانبين.

هنا لا ننكر أن بعض الكتاب الأوربيين تمكنوا فعلا من التعرف على بعض الأحكام المسبقة تجاه الآخر، لكن يبقى ذلك عبارة عن تصدي فردي متفرق الوصال ومحاولات متناثرة هنا وهناك، لا ترقى إلى حركة ثقافية تصحيحية تأخذ على عاتقها التدقيق والتحقيق في كل حكم يشين بسمعة الآخر ويحط من قدره وربطه بسياقه التاريخي وبكل موروث ثقافي أوروبي ساعد ولازال يساعد في إضفاء صورة التفوق والاستعلاء، ذلك أنه في ظل غياب هذا الدور الفاعل لهذه الحركة ستظل الحضارة الغربية وعاء لعدة أفكار تؤمن وتكرس لدى شرائح كبيرة من مجتمعاتها تفوقها الفطري والبديهي على جميع الحضارات. لقد أصبح الشعور بالتفوق لدى الحضارة الغربية معطى بديهي وطبيعي ولبنة أساسية تأسست عليه في تكوينها عبر التاريخ منذ القدم.

إن محاولاتنا إبراز ذلك سيمكننا من فهم التأثير الهائل للأحكام الموروثة المستمرة منذ القدم وإلى اليوم كمثال على ذلك كاريكاتير الرسول (ص) وإيضاح التأثير والعواقب التي تفوق الماضي نفسه لتؤثر على المواقف ووجهات النظر الثقافية والسياسية والاقتصادية في الحاضر. إن تيار التأكيد على تفوق الإنجازات الثقافية الآرية على الإنجازات الثقافات السامية أو غيرها من الثقافات الشرقية في تصاعد مستمر من طرف الأحزاب اليمينية، وإذا ما تم تبني موقف المراجعة الثقافية الأوروبية حقاً، فإنه من

[1] إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، م. م، ص. 55

الواجب البدأ بمادة العصر اليوناني الكلاسيكي التي تدرس اليوم في المدارس الأوروبية، إذ لابد أن تُنقح من العديد من الشوائب كمادة تعليمية.[1]

إن الاحترام الذي ناله الإله الإغريقي زيوس في الثقافة الغربية كإله الألهة، يوحي بأن هذه الأسطورة إنجاز يوناني فريد من نوعه. بينما نجد هذا الأخير عند المصريين كإله للرياح في القرن الثاني قبل الميلاد، ولدى الأمازيغ الليبيين، والهندوس كذلك، ولقد وصلت هذه الأسطورة إلى اليونانيين عن طريق الكنعانيين بسوريا. كما أن الإله بعل الحداد إله الطقس اليوناني حسب زعمهم، اعتبره الفينيقيون قبلهم إلها للحرب وقد ورد اسمه في القرآن الكريم في سورة الصافات أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِين.[2]

من الملاحظ أنه في غضون القرن التاسع عشر، تمت إعادة تسميتهم ونسبهم إلى "الآرية" فثم إخفاء جذورهم السامية والإفريقية مرة أو إعادة صياغتها مرة أخرى حتى لا يتم التعرف عليهم. ولأن المؤلفين اليونانيين أدركوا أنفسهم طبيعة ماضيهم، فقد لجأ علماء اللغة الأوروبيون إلى التصفية الإيديولوجية فاعتادوا عدم الإخبار عن هذه المقاطع الأصلية وتركها بدون تعليق من أجل صفاء الفكر الأوربي القديم[3]. وذلك تحت شعار "ما ورثته من آبائك، اكتسبه ليصبح ملكا لك"[4]، يتم ذلك تارة دون الاعتراف بالأصول الشرقية لهذه المعرفة وتارة أخرى دون عرض المتغيرات التي طرأت عليها ودمجها بصورة نقدية في سياقها التاريخي، ليبقى الأمر مريب.

إن الوقوف على الفترة الكلاسيكية اليونانية وأهميتها بالنسبة للتطورات الثقافية اللاحقة في الغرب يتماشى بشكل طبيعي مع نظرية توارث المعرفة، وإلا فإن الحياة الثقافية اليوم بدون الموارد الثقافية الوراثية غير ممكنة. هنا يجب التأكيد على أن الغرب ظل

[1] نستند هنا إلى الآريين كمصطلح للشعوب الذين يتحدثون واحدة مما يسمى باللغات الآرية
بروكهاوس، زيوس، المجلد 24، ص. 552

[2] بروكهاوس، كنعان، المجلد 19، ص. 417

[3] إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، 1978، ص. 52

[4] غوته، فاوست: الجزء الأول من المأساة: ليلة، ص. 25
فاوست (Faust) : مسرحية تراجيدية من تأليف الكاتب المسرحي الألماني.يوهان فولفغانغ فون غوته تقع في فصلين: الجزء الأول من التراجيديا (Faust. Der Tragödie erster Teil) ونُشر للمرة الأولى في عام 1808، والجزء الثاني من التراجيديا (Der Tragödie zweiter Teil ونُشر للمرة الأولى في 1832.

يروج لفكرة الاستقلال الثقافي الغربي على نحو ادعى من خلاله التفوق الثقافي، فاستطاع بذلك الحصول على العديد من الامتيازات من دون إثارة سخط سكانه وليكتسب هذا الادعاء شرعيته التاريخية مع مرور الزمن ويلعب دورا مهما في الحياة السياسة والاقتصادية الحالية رغم قدمه، فأصبح بذلك يحمل جينات أوروبية.[1]

خاتمة

تمكنا في هذا البحث من الوقوف على عملية الدمج التاريخي المستمر للامتيازات والمصالح الاقتصادية والسياسية من جهة والثقافة امن جهة أخرى،إلا أنه رغم هذا المجهود تبقى عدة أسئلة مطروحة بإلحاح:

- لماذا اعتقد العالم الغربي أنه لا يزال من غير الممكن تحمل تكلفة الاعتراف بالجذور السامية سواء الكنعانية أو المصرية أو الفينيقية للحضارة اليونانية؟ ولماذا أصبح هذا التجاهل ظاهرة تاريخية، وذلك من أجل الحفاظ على ثقافة غربية نظيفة؟

لقد اتضح من خلال هذا النوع من التمثيل الثقافي كيف تم تكبيل الآخر بمجموعة من الصور التنقيصية والأحكام التي تعتبر تشويها للواقع وترجمة للتمثلات والتنميطات التي أسر فيها الغرب الإنسان العربي، انطلاقا من نزعة التفوق الغربي، كما اتضح أن الاستعمار السياسي والعسكري كان مسبوقا ومتزامنا مع خطاب ثقافي سانده ودافع عنه بل ووفر له الشرعية، حيث أسهمت الثقافة في تعزيز مشروع التوسع الإمبريالي وصيانته، لنخلص إلى سلبية هذا التمثيل الجانح نحو الغرائبية والتهويل وأن المجال الثقافي الغربي لا يزال وإلى اليوم يحمي هذه الآراء والنظريات بالتالي الامتيازات الخاصة التي يجنيها من تلك التقييمات والتمثلات التاريخية المغلوطة والمشوهة حول الشرق والتي تستجيب لرغبات مختلفة بعيدة كل البعد عن الموضوعية و مع الرؤية التشاركية بين القطبين.

[1] إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، م. م، ص. 52

البيبليوغرافيا

- رينان، إرنست، التاريخ العام والمقارن للغات الساميّة، المكتبة الإمبريالية، باريس، 1863.
- سعيد، إدوارد وديع، الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، 1978.
- رولفس، فريدريك غيرهارد، إقامتي الأولى في المغرب: السفر جنوب، ترجمة إدريس الجاي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك، مختبر السرديات، الدار البيضاء، 2018.
- مالتسان، هاينريش فرايهر فون، رحلة حجّي إلى مكة، ترجمة ريهام نبيل سالم، دار الحكمة لندن، 2018.
- غوته، يوهان فولفغانغ فون، فاوست الجزء الأول، ترجمة وتقديم عبد الرحمان بدوي، دار المدى للثقافة والنشر الكويت، 2008.
- Brockhaus, *Die Enzyklopädie in vierundzwanzig Bänden*, Leipzig Mannheim, Brockhaus Verlag, 1986.
- Murath, Clemens, Intertextualität und Selbstbezug - Literarische Fremderfahrung im Lichte der Konstruktivistischen Systemtheorie - In *Reisen im Diskurs*. Modelle der literarischen Fremderfahrung von den Pilgern bis zur Postmoderne. Hrsg. von Anne Fuchs und Theo Harden, Heidelberg: Universitätsverlag C. Winter 1995 (Neuer Bremer Beiträge, Bd. 8, S. 3-18).
- Pückler-Muskau, *Hermann Fürst von: Aus Mehemed Alis Reich. Ägypten und der Sudan um 1840*, Zürich: Manesse Verlag, 3. Aufl., 1994.
- Said, Edward Wadie, *Kultur und Imperialismus*, Einbildungskraft und Politik im Zeitalter der Macht. Frankfurt am Main: S. Fischer 1994.